

حاضرة تبلبالة في المصادر التاريخية الإسلامية The City of Tabalbala in Islamic historical sources

د. محمد بيدي^{*1}

¹ جامعة طاهري محمد – بشار(الجزائر)، mohammed.bidi@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2024/12/20

تاريخ القبول: 2024/12/11

تاريخ الاستلام: 2024/04/17

ملخص: يتناول موضوع الدراسة حاضرة تبلبالة وتسلسلها التاريخي في المصادر الإسلامية منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر حيث تطرقنا في مقالنا هذا إلى مجموعة من الألفاظ اللغوية والأسماء التي أطلقت عليها خلال الحقب التاريخية المختلفة، إضافة إلى تحديد الموقع الجغرافي للمدينة ودورها التاريخي والأثري والسياسي والتجاري حسب ما رود ذكرها في المصادر التاريخية الإسلامية والأجنبية وعلاقتها بالحوضر العمرانية التي كانت مجاورة ومعاصرة لها من حيث التأثير والتأثر.

كلمات مفتاحية: تبلبالة، العمران، المصادر الإسلامية، سجلماسة، الصحراء الجزائرية.

Abstract: The subject of the study is the metropolis of Tabalbala and its historical sequence in Islamic sources, from its creation to the present day. In this article, we discussed a group of linguistic terms and the names given to it during different historical eras. In addition to determining the geographical location of the city and its historical, archaeological and political role as indicated. It is mentioned in Islamic and foreign historical sources and its relations with urban cities adjacent to it and contemporary in terms of influence and influence.

Keywords: Tabalbala; Urban; Islamic sources; Sijilmasa; Algerian Sahara.

1. مقدمة:

إن دراسة الصحراء وأثرها المتميز من خلال تاريخها وعلاقاتها متعددة الجوانب في بلاد المغرب الإسلامي لاتزال تطرح عدّة إشكاليات متباينة في المجال التاريخي بين الباحثين والمؤرخين والأثريين، ولم تظهر حتى يومنا هذا دراسات جادة في مجال التاريخ وعلم الآثار حول الصحراء ومراكزها العمرانية في العصر الإسلامي، وحتى المؤرخين المحدثين وخاصة الفرنسيين منهم لم يهتموا بهذه الحقبة التاريخية الهامة، حيث انصبوا في دراساتهم على المواقع الأثرية التي تعود لفترة ما قبل التاريخ، وذلك لأن الآثار الإسلامية عامة كانت آخر حلقة في اهتمامات علماء الآثار والمؤرخين الفرنسيين في الجزائر وبلاد المغرب الإسلامي عموماً لعدة اعتبارات معروفة. ولعل خير دليل على ذلك هو خلو الأطلس الأثري L'Atlas Archéologique لستيفان جزيل (S Gesell) من أية إشارة وذكر للآثار والمعالم والمواقع الأثرية الإسلامية في الجزائر وهو استبعاد مقصوداً للآثار الإسلامية (شنيتي، 2013: 80).

إن الحديث عن مدينة تَبْلَبَالَة والغوص في تاريخ تأسيسها وتطوّرها صعب جداً نظراً للعدّة اعتبارات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، غموض تاريخها منذ نشأتها كمدينة صحراوية في العصور الإسلامية، خاصة إذا حاولنا تتبّع مراحل تطوّرها من الناحية العمرانية والخوض في مراحل تطوّرها التاريخية ومدى تأثيرها وتأثرها بالأحداث التي عرفتها بلاد المغرب في هذه الفترة، ومواكبتها للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ضف إلى ذلك قلة المصادر والمراجع التاريخية التي تناولت تاريخ المنطقة بصفة عامة وتاريخ مدينة تلبالة بصفة خاصة، وانعدام الأبحاث والدّراسات الأثرية من تنقيبات ومسوحات وحفريات أثرية، حتى أننا لا نجد لها أثراً أو ذكراً في الدّراسات الأجنبية التي أقيمت في الصحراء الجزائرية. كما أنّه لا توجد لدينا وثائق ومستندات تاريخية نعتمد عليها باستثناء بعض الإشارات السطحية غير الدقيقة في كثير من الأحيان. كما لا نجد دراسات معمقة حولها، رغم ظهورها في واجهة الأحداث في التاريخ الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي (5هـ - 11م)، باستثناء

تلك المأخوذة من المصادر العربية على شكل معلومات موجزة ومقتضبة، حيث ركزت تلك المصادر على الجوانب السطحية والمحلية دون التّطرق إلى جوهرها التاريخي والحضاري، (الشريف، 1996: 77-91). هذا الأمر يضع الباحث في تاريخ حاضرة تَبْلَبَالَة في حيرة من أمره. وعليه حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية التّطرق للحضور الاقتصادي لحاضرة تَبْلَبَالَة في الحيز الجغرافي الذي تمت الإشارة إليه سابقا. وانطلاقا ممّا سبق، فإنّنا نحصر إشكالية الدّراسة الحالية في التساؤل التالي: هل كان لحاضرة تبليالة حضور اقتصادي في منطقة المغرب الإسلامي تؤثقه المصادر الإسلامية؟

وللإمام بجميع جوانب هذا الموضوع، اتبعنا المنهج التحليلي بالاعتماد على تحليل النصوص الأثرية المكتوبة والبقايا الأثرية كالمسكوكات واللوحات الأثرية، و مصادر أخرى يمكن لها أن تكون دليلا جوهريا لوضع العمل في شقه الصحيح.

2. تعريف لفظ تبليالة:

ذَكَرَ عبد الله الإدريسي أنّ لفظ تَبْلَبَالَة قد ورد على شكل أسماء كثيرة مختلفة في النّطق، لكنّها احتفظت جميعها بمجموعة الحروف التي تشكل الكلمة (ت ب ل ب ا ل ة)، فقد سمّيت: تَبْلَبَارَت، تَبْلَبَال، (بكسر التاء)، تَبْلَبَلت أو تَبْلَبَالَت، وفي النهاية استقرت على اسم تَبْلَبَالَة وهو الاسم الحالي للمدينة. (الادريسي، 2013: 28). أمّا في محاولتنا لتوطين هذا الاسم، فإنّ الذاكرة المحلية تؤكد بأن اسم تَبْلَبَالَة هو اسم بربري محلي لغويا، يمكن تقسيمه إلى جزأين: " تَب " وتعني " الواد " أو " المكان " أمّا الجزء الثاني فهو " لبالة " وتعني الأرض الرطبة أو الأرض التي بها مياه.

3. موقع تبليالة الجغرافي:

تقع مدينة تَبْلَبَالَة في الجنوب الغربي الجزائري، وهي دائرة تابعة إداريا لولاية بني عباس الفتية حسب التقسيم الإداري الأخير (2019)، بها واحة بطول 05 كم على علو 525م على مستوى سطح البحر بقمة جبل " تَدْمُوسْت " الذي يبلغ ارتفاعه 736م، يحدها شمالا حمادة الدورة، وشرقا عرق الراوي، وغربا عرق شاش. وبذلك يحتل موقعها أهمية خاصة

من الناحية الطبوغرافية وتعتبر تَبْلَبَالَة ملتقى الطرق التجارية التي تمر بها القوافل من شمال بلاد المغرب الإسلامي وجنوب الصحراء وبلاد السودان (De La Chapelle, 1930: 57). ومن هنا نستطيع أن نقول أن مدينة تَبْلَبَالَة لها مكانة جغرافية ممتازة في العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي وغرب إفريقيا في العصور الوسطى لأنها تتوسط أهم المراكز الحضرية التي لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية بين الشمال والجنوب، حيث يحدّها من الناحية الغربية فجيج وسجلماسة ومن الناحية الشرقية تَوَات وتمنطيط ومن الناحية الجنوبية تغازي وتاوديني، وهذه المراكز الحضرية كان لها دور كبير وأساسي في تنشيط الحركة التجارية الصحراوية بالمنطقة وربط الشمال بالجنوب (De La Chapelle, 1930: 57).



صورة تمثل مسار بعض القوافل التجارية- بتصرف-

4. مدينة تلبالة في المصادر التاريخية الإسلامية :

خلال بحثنا المتواضع هذا حول تاريخ حاضرة تلبالة، وأثناء تصفحنا للمصادر التاريخية الإسلامية وجدنا أن أقدم المعلومات التاريخية التي ذكرت مدينة تلبالة كانت في القرن الثالث الهجري (القرن 3 هـ - 6م) في عهد الدولة المرداسية التي أسسها الأمير " محمد بن ميمون بن تقيّة " حيث أورد لنا لسان الدين بن الخطيب نصا يقول فيه: "ظهر وغزا بلاد القبلة وملك مدينة تافلبات (تابلبات) وتوفي في شهر صفر سنة سبعين ومائتين". (بن قربة، 2001: 98). ومن خلال النص تظهر لنا رواية بن الخطيب مهمة ومختصرة لأن المدينة قديمة ضاربة في أعماق التاريخ ولهذا لا يمكن أن نصدر حكما مطلقا هكذا، فالأمر يحتاج إلى بحث عميق في تاريخ المدينة من خلال الأبحاث والتنقيبات الأثرية، والقيام بأسفار ومكتشفات وحفريات أثرية في المنطقة وقراءة متفحصة في المخطوطات والوثائق الأرشيفية بطريقة علمية أكاديمية وأثرية بالاعتماد على المصادر التاريخية والأثرية المتخصصة في هذا المجال.

أمّا حسن الوزان (933 هـ - 1526م) فقد أورد لنا نصّا ذكر فيه مدينة تلبالة في كتابه "وصف إفريقيا " هذا نصه: "تلبلت هو مكان مأهول في وسط صحراء نوميديا، على بعد نحو مائتي ميل عن الأطلس، ومائة ميل جنوب سجلماسة، وهناك ثلاثة قصور عامرة بالسكان وأراضيها الصالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل" (الوزان ، 1983: 129). وفي هذا النص قدّم لنا حسن الوزان وصفا موجزا للمدينة ولم يُشر إطلاقا إلى تاريخها أو إلى تاريخ بنائها ولا إلى الفترات التي مرّت بها أو العوامل التي أدت إلى بنائها لا من بعيد ولا من قريب، حيث وصف لنا المدينة وعمرانها وسكانها وأقواتها وثمارها والحيوانات والوحوش التي كانت متواجدة بها وعادات وتقاليد المنطقة. كما صنفها ضمن إقليم سجلماسة. ولكن حسب بعض الروايات التاريخية فإن تأسيس مدينة تلبالة يعود في الأساس إلى الصراع الذي كان قائما بين المرابطين والزناتيين، حيث خرج المرابطون في جيش جرار ضخم ونزلوا بوادي درعة، ولما سمع أمير مغراوة بخروجهم جهز جيشا في اثنا عشرة مقاتلا

من قومه وعشيرته للقاء المرابطين، لكنهم لم يصمدوا أمام الجيش المرابطي، وهُزم الزناتيون وتفرق شملهم، وفُتح طريق وادي درعة أمام المرابطين (بن قربة ، 2001: 98)، بقي الصراع محتدما بين الطرفين في كر وفر وخاصة على مدينة سجماسة وفي الأخير رجعت الغلبة للمرابطين حيث سيطروا على إقليم الواحات والصحراء، وأسسوا مدينة تَبْلَبَالَة واتخذوها قاعدة لهم.

جاء تأسيس مدينة تَبْلَبَالَة لعدة عوامل اقتصادية لأن الزناتيون كانوا يحتكرون التجارة ويسيطرون على الطرق التجارية والقوافل المتجهة نحو الجنوب. (بن الأثير، د س: 259). ونظرا لأن مواطن المرابطين كانت بعيدة ومتوغلة في أقاصي الصحراء مما يصعب الاتصال بين القبائل وذويهم، ولتأمين هذه القبائل كان لزاما على الأمير تأسيس مدينة تَبْلَبَالَة كمعسكر للقيام بهذا الدور الريادي والمهم، ليحافظ على نفوذه في البلاد المفتوحة ومنع القبائل المعادية للمرابطين من الاشتباك بهم، وقد أكد الباحث الغربي دولاشابال (De La Chapelle) أن مدينة تَبْلَبَالَة من آثار المرابطين وتاريخ بنائها يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخهم وحضارتهم، إلا أنهم يختلفون في اسم المؤسس الحقيقي لها، (De La Chapelle 1930:58). أما القلقشندي الذي عاش في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي (9هـ -15م) والذي جمع مجموعة من نصوص الجغرافيين الذين سبقوه عن بلاد الصحراء نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: العمري وابن سعيد وابي الفداء والحميري، (محمود ، د س: 214)، لكن لا نجد ذكر مدينة تَبْلَبَالَة في هذه النصوص ولا أخبار تاريخية عن منطقة تَبْلَبَالَة.

إنَّ أملنا كبير في المستقبل للحصول على نصوص ووثائق تاريخية لإثراء الجانب التاريخي والأثري للصحراء الجزائرية عامة ومنطقة تَبْلَبَالَة خاصة، فالصحراء تزخر بكم هائل من المخطوطات الأثرية التي لا نعرف لحد الساعة موضوعاتها ومحتوياتها التاريخية والأثرية والعلمية وهذا حتى يتسنى لنا دراسة المنطقة ميدانيا من خلال هذه الوثائق

لحفظ وحماية التراث الصحراوي الجزائري والعمل على دراسته واثمينه ونشره وإخراجه إلى الأجيال الصاعدة.

5. حاضرة تلبالة وتجارة الصحراء:

إنّ معرفة وفهم حاضرة تلبالة ودورها في التجارة الصحراوية لا يتم إلا عن طريق التركيز على تطوّر التجارة الصحراوية، وشبكة الطرق خلال العصور التاريخية المختلفة، على الرغم من شحّ المادة التاريخية حولها.

من المعلوم أن العلاقات التجارية بين الصحراء الكبرى وبلاد المغرب الإسلامي ترجع إلى حقبة تاريخية قديمة، وهو ما توضّحه لنا جلياً الرّسوم الصخرية بالصحراء، حيث نجد صور العربات والحيوانات المتمثلة في الأبقار والحلي والأسلحة وغيرها، علماً أنّ هذه العربات كانت تسلك نفس الطريق التي كانت تسلكه القوافل في العصر التاريخي المعروف. وكانت القوافل تجوب الصحراء لجلب الذهب والعبيد والعاج مقابل المنسوجات والنحاس والأدوات المصنعة.

هذه الآثار السالفة الذكر والتي تعود أساساً إلى عصر ما قبل التاريخ تدل وتثبت وجود علاقات وصلات تجارية بين المغرب والصحراء، والشمال والجنوب وظلت قائمة في العصر اليوناني والعصر الروماني، وبعد ذلك العصر البيزنطي فيما بعد حسب ما تؤكد المصادر التاريخية القديمة.

وبعد الفتح الإسلامي قام سكان بلاد المغرب بتنظيم وتأمين أسواق الصحراء الكبرى والمواصلات مع هذه البلاد على أساس تجاري محض (بن قربة، 2001: 93). ومن أهم الطرق التجارية التي كانت في تلك الفترة تتجه شمال شرق وجنوب غرب والتي تنطلق من الواحات المصرية ومن جنوب أفريقيا نحو النيجر. وهناك طريق آخر يربط مصر بالسودان الغربي عبر الصحراء الجنوبية. ومع ظهور المرابطين في المغرب الإسلامي والتوحيد السياسي بين المغرب والأندلس، فقد حرصوا على تأمين الحركة التجارية، إذ تعتبر الفترة المرابطية مرحلة انتقال من الاعتماد على التجارة والرعي وبيع الذهب إلى استخدام المعادن بشكل

واسع، وعليه استفادت حاضرة تَبْلَبَالَة في هذه الفترة من استغلال المبادلات التجارية والتصنيع، وتحوّلت من محطة استراحة للقوافل التجاريّة العابرة للصحراء الكبرى إلى مركز تجاري مُهم يسيطر على تجارة الصحراء، كما حرص الموحدون أيضا على ضمان سير التجارة في المنطقة بشكل مستمر ومتواصل ومنظّم. (محمد القبلي، 1987: 15).

كما عمد المرينيون إلى مساعدة أبناء عمومتهم وعرب المعقل في تمنيط على التحكّم في طرق القوافل. (محمد الشريف، 1996: 91).

كما عمل بني عبد الواد على تشجيع وحماية الحركة التجاريّة خصوصا معدن الذهب الذي يقوّي الدولة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا. وكانت تُنقل السلع والمواد التجاريّة إلى مدينة تَبْلَبَالَة آتية من المغرب إلى الصحراء الكبرى والسودان، وأيضا من الصحراء إلى المغرب لتنقل إلى الشمال بموانئ البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت نقطة ارتكاز محوري في ربط مناطق الصحراء بالشمال، لأنّ القوافل التجاريّة كانت تجوبها محمّلة بالسلع الصحراوية، ونتج عن ذلك نشاط تجاري مميّز في المنطقة، تنوّعت فيه السلع والمواد التجاريّة، لكن من الصعب الإحاطة والامام بجميع أوجه النّشاط التجاري في مدينة تَبْلَبَالَة مع المناطق المشهورة تاريخيا والتي أشرنا إليها سابقا، لأن المصادر التاريخية في بلاد المغرب الإسلامي اكتفت بذكر بعض ملامح تجارتها، وبذلك لم تعطينا شرحا كاملا ووافيا حول دور تَبْلَبَالَة في تجارة الصحراء بشكل خاص. (بن قربة ، 2001: 102). ومن هنا تكمن صعوبة دراسة مثل هذه المواضيع الاقتصادية والتجارية نظرا لعدم تنوّع المصادر والنصوص والتي تعطينا مجالا واسعا في الدّراسات المقارنة والتي تجعلنا نجزم في طرحنا. ومما ورد على لسان الرّحالة القدماء، أنّ تَبْلَبَالَة كانت لها علاقة من خلال المبادلات التجارية مع المغرب والصحراء الكبرى، فإنّ السلع الأساسيّة التي كانت تحملها القوافل إلى بلاد السودان الغربي تتمثّل في التّمور والحبوب والأقمشة والمصنوعات المعدنية والجلدية وأنواع الزجاج والخزف والأصداف والخواتم والقطران والملح. (بن قربة، 2001: 103).

إنّ السلع التي كان يجلبها أهل تلبّالة من السودان الغربي هي: الذهب الذي كان يتصدّر السلع السودانية، نظرا لقيمته وتزايد الطلب عليه، وكان يغطي احتياجات بلدان المغرب والدول الأوروبية حسب ما ذكره المؤرخون القدامى. ويغطي لوحده جميع أثمان السلع المجلوبة إلى الجنوب، والذي كان يشحن في أكياس صغيرة على شكل مسحوق أو أوراق نقدية. (بن قربة، 2001: 104). هذا بالإضافة إلى ريش النعام الذي كان يشحن إلى المغرب و أوروبا، والذي كان يتخذ للتجميل والزينة، وكذلك بيض النعام الذي كان يصدر ويستخدم في المركّبات لعلاج الأمراض الجلدية، بالإضافة إلى أنواع التوابل كالفلّفل الأحمر الصغير.

ومن هنا يمكن القول بأن أسواق حاضرة تلبّالة نشطت وتطوّرت وزادت منتوجاتها ومعروضاتها وأصبحت عاصمة للتجارة الداخلية، ومركز تجاري خارجي، وأصبح سكانها يعقدون الصّفقات مع تجّار المغرب والسودان وهذا ما ذكره حسن الوزّان في كتابه "وصف إفريقيا".

6. خاتمة:

وخلاصةً يمكن أنّ القول أنّ حاضرة تلبّالة ورغم الأهمية التي تكتسبها من الناحية التاريخية والأثرية والحضارية إلا أنّها لم يؤلّها المؤرخون والأثريون والجغرافيون الرّحالة العرب المسلمون القدر الكافي من الاهتمام، مثل المدن الصحراوية الكبرى التي كانت معاصرة ومنافسة لها، وكان لها نفس المجال الحيوي مثل مدن: سجلماسة وأغمات وتمنطيط وغيرها، وذلك راجع في نظرنا إلى أنّ تلبّالة لم تكن في مستوى هذه المدن السالفة الذكر من حيث نشاطها التجاري، ولم ترقى إلى مستوى المراكز التجارية المشهورة والمعروفة رغم فيصلية موقعها الجغرافي، وذلك نتيجة أن المرابطين استعملوها كمعسكر للجيش فقط وكموقع لانطلاق الجيوش باتجاه المغرب الأقصى وجنوب الصحراء.

وعليه ما نعرفه عن هذه المدينة ودورها الحضاري وتأثيرها على المنطقة يعتبر ضئيلا جدا مقارنة بالمدن الأخرى المعاصرة لها، باستثناء بعض المعلومات السطحية والضيئلة في المؤلفات القديمة والحديثة. (محمود ، 1963: 820).

6. قائمة المراجع:

1. بن الأثير. (د س). الكامل في التاريخ، (ط1). بولاق.
2. بن قربة، صالح يوسف. (2001). " أهمية تبلالة في تجارة المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط " . دراسات إنسانية، (العدد1).
3. حسن أحمد محمود. (د س). قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى. لبنان: دار الفكر العربي.
4. حسن الوزان. (1983). وصف إفريقيا. لبنان: دار الغرب الإسلامي.
5. حمادي الادريسي، عبد الله. (2013). نبذة مختصرة من تاريخ تبلالة (ط1). الجزائر: وزارة الثقافة.
6. الشريف ، محمد. (1996). ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية في القرن 14 الميلادي ضمن نصوص جديدة ودراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (د.ط.). المغرب: مطبعة الحداد.
7. شنيطي ، محمد البشير. (2013). علم الآثار، تاريخه. مناهجه. مفرداته (د.ط.). الجزائر: دار الهدى عين مليلة.
8. القبلي محمد. (1987). ملاحظات حول التجارب الموحدية الوسيطية ببلاد المغرب. المغرب. الدار البيضاء .
9. De La Chapelle . (1930). esquisse d'une histoire du Sahara occidental (T.II).